ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

جدلية الفقد والبعث: الهوية والذاكرة في رواية "فاي: عملية البعث" لنبيل فاروق

أ.د. يحيى معروف (الكاتب المسؤول)، جامعة رازي، كرمانشاه ، إيران
yahyamaarouf@gmail.com
حسين صالح عبد، طالب مرحلة الماجستير، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران.
Nfsydktwr93@gmail.com

ملخص البحث

يتناول هذا البحث جدلية الفقد والبعث في تشكيل الهوية والذاكرة، من خلال قراءة تحليلية لرواية "فاي: عملية البعث" للكاتب نبيل فاروق. تنطلق الدراسة من افتراض أن فقدان الذاكرة في هذا النص لا يُعدّ مجرد حادثة عرضية تخدم الحبكة البوليسية والجاسوسية، بل بنية دلالية عميقة تطرح أسئلة وجودية حول معنى الهوية الإنسانية وعلاقتها بالماضي والانتماء والوطن.تتتبع الدراسة مسار البطل من لحظة السقوط والإصابة في حرب أكتوبر ١٩٧٣، مروراً بالغيبوبة التي تمحو ذاكرته كاملةً، وصولاً إلى لحظة "الميلاد الثاني" حين يستعيد وعيه خالياً من أي تاريخ شخصي سابق، ليُمنح اسماً رمزياً هو "فاي" — رمز القيمة الخالية في الرياضيات — تعبيراً عن إنسانٍ بلا ماضٍ يُعاد بناء هويته من نقطة الصفر. ويكشف البحث كيف تحوّل هذا الفقد، الذي بدا في ظاهره مأساة إنسانية، إلى شرط تأسيسي لميلاد بطلٍ خارق يخدم وطنه دون أن يحمل عبء ذكرياته الفردية، في معادلة فنية تربط بين العدم الهوياتي والبعث القومي.ويسعى البحث إلى الكشف عن آليات بناء هذه الجدلية في النص، عبر دراسة دلالة الاسم الرمزي ووظيفته، وتحليل العلاقة بين الذاكرة المفقودة والهوية الجديدة المُصطنعة، والوقوف على البعد الرمزي لربط "البعث" الفردي بالبعث الوطني الذي مثّلته حرب أكتوبر في الذاكرة الجماعية المصرية. وتخلص الدراسة إلى أن رواية نبيل فاروق، في إطارها الشعبي البوليسي، تحمل بنية فكرية أعمق تستحق القراءة النقدية المتأنية، إذ تُعيد صياغة سؤال الهوية الإنسانية بوصفه قابلاً للتشكّل من جديد، حتى في أقسى ظروف الفقد والمحو.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الذاكرة، البعث، الفقد، رواية "فاي: عملية البعث"، نبيل فاروق، أدب الجاسوسية.

:Abstract

This study examines the dialectic of loss and resurrection in the construction of identity and memory through an analytical reading of Fai: Operation Resurrection by Nabil Farouk. The research proceeds from the premise that memory loss in this text is not a mere incidental device serving the detective-spy plot, but rather a profound semantic structure that raises existential questions about the meaning of human identity and its relationship to the past, belonging, and homeland.The study traces the protagonist's trajectory from the moment of his fall and injury during the October 1973 War, through the coma that erases his memory entirely, to the moment of "second birth" when he regains consciousness devoid of any prior personal history, and is given the symbolic name "Fai" — the mathematical symbol denoting the "empty value" — expressing a human being without a past whose identity is reconstructed from zero. The research reveals how this loss, which appears on the surface as a human tragedy, becomes the foundational condition for the birth of a superhuman hero who serves his nation unburdened by the weight of individual memories, in an artistic equation linking identity-based nothingness to national resurrection.The study seeks to uncover the mechanisms by which this dialectic is constructed in the text, through examining the significance and function of the symbolic name, analyzing the relationship between lost memory and fabricated new identity, and identifying the symbolic dimension linking individual "resurrection" to the national resurrection embodied by the October War in Egyptian collective memory. The study concludes that Nabil Farouk's novel, within its popular detective framework, carries a deeper intellectual structure deserving careful critical reading, as it reformulates the question of human identity as something capable of being reshaped anew, even under the harshest conditions of loss and erasure.

Keywords: Identity, Memory, Resurrection, Loss, Fai Operation Resurrection, Nabil Farouk, Spy Fiction.

المقدمة

تُعدّ قضية الهوية من أعمق القضايا التي شغلت الفكر الإنساني والأدبي على مرّ العصور، فالإنسان لا يكتفي بالوجود البيولوجي المحض، بل يسعى دائماً إلى الإجابة عن سؤال "من أنا؟"، وهذا السؤال يتجذّر بعمق في الذاكرة؛ فالذاكرة هي الخيط الذي يربط الإنسان بماضيه، ويمنحه شعوراً بالاستمرارية والتماسك النفسي، ويكفل له إحساساً بالانتماء إلى نسيج اجتماعي وثقافي محدد. ومتى انقطع هذا الخيط، أو تعرّض للمحو الكامل، وجد الإنسان نفسه في مواجهة فراغٍ وجودي رهيب، يضعه أمام تحدٍّ جوهري: كيف يُعيد بناء هويته من العدم؟وقد استثمر الأدب، بأنواعه المختلفة، هذه الإشكالية الوجودية استثماراً فنياً عميقاً، فجعل من فقدان الذاكرة بنية سردية خصبة، تتيح للكاتب أن يطرح أسئلة الهوية والانتماء والمصير بصورة مكثفة ومثيرة، بعيداً عن المباشرة والتقرير. وتأتي رواية "فاي: عملية البعث" للكاتب المصري نبيل فاروق، الصادرة في إطار سلسلته الروائية الشهيرة "رجل المستحيل"، نموذجاً لافتاً لهذا التوظيف؛ فبطل الرواية شابٌ من رجال الصاعقة المصرية، يسقط في ليلة معركة العبور الكبرى عام ١٩٧٣، فتمحو الإصابةُ ذاكرتَه كاملةً، ويُولد من رحم هذا الفقد كيانٌ جديد، لا يحمل اسماً سوى الرمز الرياضي "فاي"، الذي يشير في علم الرياضيات إلى "القيمة الخالية".وعلى الرغم من أن هذه الرواية تنتمي ظاهرياً إلى أدب المغامرات البوليسية والجاسوسية، وهو نوعٌ أدبي شعبي غالباً ما يُنظر إليه بوصفه أدباً للتسلية المحضة، فإن قراءةً متأنية لبنيتها الداخلية تكشف عن طبقة دلالية أعمق، تتجاوز حدود الحبكة البوليسية إلى مساحة التأمل الفلسفي في معنى الهوية الإنسانية وعلاقتها بالذاكرة؛ فبطل الرواية لا يفقد ذاكرته في سياق عرضي يخدم التشويق فحسب، بل يتحول هذا الفقد إلى شرطٍ تأسيسي لميلاده الثاني، وإلى استعارة كبرى تربط بين محو الهوية الفردية وإعادة صياغتها في خدمة هويةٍ وطنية أكبر، هي مصر، التي تستعيد هي نفسها كرامتها المهزومة عبر حرب أكتوبر، في توازٍ رمزي لافت بين بعث الفرد وبعث الوطن.ومن هنا تنبع أهمية دراسة هذه الرواية من زاويةٍ نقدية تتجاوز تصنيفها الشعبي المعتاد، لتكشف عن الجدلية العميقة بين الفقد والبعث، وعن الطريقة التي تُعيد بها هذه الرواية صياغة سؤال الهوية بوصفه قابلاً للتشكّل من جديد، حتى في أحلك ظروف المحو والنسيان. ويسعى هذا البحث، من خلال قراءة تحليلية لنص الرواية، إلى الإجابة عن جملةٍ من الأسئلة المحورية: كيف صاغت الرواية علاقة الذاكرة بالهوية؟ وما الدلالة الرمزية لاختيار الاسم "فاي" بوصفه تعبيراً عن "القيمة الخالية"؟ وكيف تحوّل الفقد الفردي إلى شرطٍ لبعثٍ وطني أشمل؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار هذه الرواية الشعبية حاملةً لرؤية فكرية تستحق التوقف والتحليل النقدي المتعمق؟

إشكالية البحث

تتبنى إشكالية هذا البحث على افتراض أن فقدان الذاكرة في رواية "فاي: عملية البعث" لنبيل فاروق ليس حيلةً سردية عابرة تخدم منطق التشويق البوليسي والجاسوسي فحسب، بل بنية دلالية محورية تطرح تساؤلاً وجودياً عميقاً حول طبيعة الهوية الإنسانية: هل الهوية جوهرٌ ثابتٌ متجذّر في الذاكرة والماضي، بحيث يفنى الإنسان بفناء ذكرياته؟ أم أنها بناءٌ قابل لإعادة التشكّل من جديد، حتى من نقطة الصفر، إذا توافرت له شروط الانتماء والإرادة؟فالكاتب لم يكتفِ بتوظيف فقدان الذاكرة بوصفه حادثاً عرضياً يبرر دخول البطل عالم المخابرات، بل صاغ منه معادلةً فنية مركّبة، يتقاطع فيها الفقدُ الفردي بالبعث الوطني؛ فالشاب الذي يفقد ذاكرته الشخصية بالكامل، لا يفقد معها انتماءه الغريزي لوطنه، بل يُعاد بناء هويته كاملةً حول هذا الانتماء وحده، حتى يُمنح اسماً رمزياً يحمل دلالة "العدم" والـ"القيمة الخالية"، في مفارقةٍ لافتة تجعل من الفراغ الهوياتي شرطاً لميلادٍ جديد لا لفناءٍ نهائي.ومن هنا، تتمثل الإشكالية المركزية لهذا البحث في الكشف عن الطريقة التي تتجلى بها جدلية الفقد والبعث في بنية هذا النص الروائي، وعن الآليات الفنية والدلالية التي اعتمدها الكاتب في ربط محو الذاكرة الفردية بإعادة تشكيل هوية جديدة، تنهض على الانتماء الوطني بديلاً عن الذاكرة الشخصية المفقودة. وتتفرع عن هذه الإشكالية المركزية أسئلة فرعية عدة: ما الدلالة الرمزية لاختيار الاسم "فاي" تحديداً، بما يحمله من معنى رياضي مرتبط بالخلوّ والعدم؟ وكيف عالجت الرواية العلاقة بين الذاكرة الفردية والهوية الوطنية الجماعية؟ وهل يمكن اعتبار "البعث" الذي يخوضه البطل بعثاً فردياً محضاً، أم هو صورة مصغّرة لبعثٍ وطني أشمل تمثّله حرب أكتوبر في الذاكرة الجماعية المصرية؟ وإلى أي مدى نجحت الرواية، في إطارها الشعبي البوليسي، في تحويل قضية فقدان الذاكرة من حيلة سردية وظيفية إلى رؤية فلسفية متكاملة حول قابلية الهوية الإنسانية للتشكّل من جديد؟

أهمية الدراسة

تتجلى أهمية هذه الدراسة في عدة جوانب تتقاطع فيها القيمة النقدية والفكرية للموضوع المختار:

أولاً، تكمن أهمية الدراسة في طبيعة الإشكالية الفلسفية التي تتناولها؛ فقضية الهوية وعلاقتها بالذاكرة تمثل أحد الأسئلة الوجودية الكبرى التي يتقاطع فيها الأدب بالفلسفة وعلم النفس، ومقاربة هذه القضية من خلال نصٍ روائي شعبي تفتح آفاقاً جديدة لفهم كيف يمكن للأدب الجماهيري أن يحمل في طياته أبعاداً فكرية عميقة، لا تقل خطورة وجدية عما تطرحه الرواية النخبوية أو الفلسفية المتخصصة.

ثانياً، تكتسب الدراسة أهميتها من إعادة الاعتبار لنوعٍ أدبي مهمَّش نقدياً؛ فأدب الجاسوسية والمغامرات البوليسية، ورغم انتشاره الواسع وشعبيته الجماهيرية الكبيرة، لم ينل حظه الكافي من الدراسات النقدية الأكاديمية الرصينة، التي غالباً ما تنظر إليه بوصفه أدباً للتسلية لا يستحق التحليل العميق؛ ومن هنا، يسعى هذا البحث إلى تجاوز هذا التحيز النقدي، وإثبات أن أعمال نبيل فاروق، وفي مقدمتها سلسلة "رجل المستحيل"، تستحق قراءة نقدية جادة تكشف عن طبقاتها الدلالية الخفية.

ثالثاً، تتميز الدراسة بكشفها عن العلاقة الرمزية بين الهوية الفردية والهوية الوطنية؛ فالبحث لا يتوقف عند حدود التحليل النفسي لشخصية فقدت ذاكرتها، بل يمتد إلى الكشف عن البعد الإيديولوجي والوطني الذي يؤسس له النص، من خلال ربط بعث الفرد ببعث الأمة في سياق حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهو ما يخدم الدراسات الثقافية المهتمة بتوثيق كيفية تمثيل الأدب الشعبي للذاكرة الجماعية والهوية القومية.

رابعاً، تفتح الدراسة المجال أمام توسيع مفهوم الهوية الروائية في الأدب العربي الشعبي؛ فمن خلال تتبع آليات بناء شخصية "فاي" واسمها الرمزي ومسارها من الفقد إلى البعث، يقدّم البحث نموذجاً تحليلياً يمكن البناء عليه أو مقارنته بأعمال روائية أخرى توظف فقدان الذاكرة أو إشكاليات الهوية بطرائق مماثلة، سواء في الأدب الشعبي أو في الرواية العربية النخبوية.وبهذا، تسعى الدراسة إلى تقديم إضافة نقدية متواضعة لكنها أصيلة، تُسهم في توسيع دائرة الاهتمام الأكاديمي بالأدب الشعبي العربي، وتفتح باباً لدراسات لاحقة أوسع وأشمل حول جدلية الفقد والبعث في النصوص الروائية المشابهة.

منهج البحث

يعتمد هذا البحث بصفة أساسية على المنهج الوصفي التحليلي، باعتباره الأقدر على رصد تجليات جدلية الفقد والبعث في النص الروائي، وتفكيك بنيته الفكرية والدلالية. ويتفرّع عن هذا المنهج الإجراءات والمقاربات الآتية:

أولاً: المقاربة السيميائية للاسم والرمز، التي تتعامل مع الاسم الكودي "فاي" بوصفه علامةً لغوية ورياضية حاملة لدلالات رمزية عميقة، لا مجرد لقبٍ إجرائي عابر، وذلك من خلال تحليل العلاقة بين الدال (الرمز الرياضي للقيمة الخالية) والمدلول (الفراغ الهوياتي وإعادة البناء من العدم).

ثانياً: المقاربة النفسية لعلم الهوية والذاكرة، مستفيداً من المفاهيم النقدية والنفسية المتعلقة بفقدان الذاكرة (الأمنيزيا) وأثره في تشكّل الهوية الإنسانية، وذلك بغية فهم الكيفية التي تُعيد بها الشخصية الروائية بناء وعيها بذاتها بعد انقطاع الصلة بماضيها بالكامل.

ثالثاً: المقاربة السياقية التاريخية، التي تربط بين الحدث الروائي (إصابة البطل وفقدانه لذاكرته) والسياق التاريخي الذي يحتضنه (حرب أكتوبر ١٩٧٣)، بما يسمح بالكشف عن التوازي الرمزي بين بعث الفرد وبعث الأمة، وقراءة النص في ضوء لحظته التاريخية ودلالاتها في الذاكرة الجماعية المصرية.

رابعاً: إجراء التحليل النصي، القائم على استقراء مشاهد مختارة من الرواية، تتعلق بلحظة الإصابة، ولحظة استعادة الوعي، ولحظة تسمية الشخصية، ودراستها دراسة تحليلية تكشف عن الأدوات السردية واللغوية التي وظّفها الكاتب في بناء جدلية الفقد والبعث.

ويقوم البحث بتوظيف هذه الإجراءات مجتمعةً ضمن خطوات منهجية متتابعة: الوقوف عند لحظة الفقد التأسيسية وتحليل سياقها، ثم دراسة آليات إعادة بناء الهوية الجديدة ودلالة الاسم الرمزي، وصولاً إلى استخلاص العلاقة الرمزية بين البعث الفردي والبعث الوطني، وتأكيد القيمة الفكرية لهذا النص الروائي الشعبي.

حياة الكاتب

نبيل فاروق (١٩٥٦–٢٠٢٠)، طبيبٌ وكاتبٌ مصري، يُعدّ أحد أبرز رواد أدب الخيال العلمي والمغامرات البوليسية والجاسوسية في الأدب العربي المعاصر، وأكثرهم تأثيراً في أجيالٍ متعاقبة من القراء الشباب والناشئة في العالم العربي. وُلد في مدينة الإسكندرية، ودرس الطب وتخصص فيه، قبل أن يتجه إلى الكتابة الأدبية التي طغت في النهاية على مهنته الطبية، حتى أصبح اسمه مرتبطاً بشكلٍ وثيق بنوعٍ أدبي جديد أسّس له في المكتبة العربية.يُعرف نبيل فاروق بوصفه مؤسس سلسلة "رجل المستحيل"، التي تُعدّ من أنجح وأطول السلاسل الروائية البوليسية والجاسوسية في تاريخ الأدب العربي، وتدور حول شخصية "أدهم صبري"، الجاسوس المصري الذي يخوض مهمات استخباراتية معقدة لخدمة وطنه، وقد امتدت هذه السلسلة لعقودٍ طويلة، وأصدر منها الكاتب أكثر من مائة وثلاثين رواية، حقّقت رواجاً جماهيرياً واسعاً، وأسّست لتقليدٍ أدبي شعبي يمزج بين التشويق

البوليسي والخيال الجاسوسي والقيم الوطنية.ولم يقف إبداع نبيل فاروق عند سلسلة "رجل المستحيل"، بل امتد إلى سلاسل أخرى لا تقل شهرة، من أبرزها سلسلة "ملف المستقبل"، التي تنتمي إلى أدب الخيال العلمي، وسلسلة "فرسان الإسلام"، التي تتناول قضايا التاريخ والهوية الإسلامية، فضلاً عن أعمال أخرى متفرقة جمعت بين المغامرة والتشويق والبعد الفكري والوطني.تميزت كتابة نبيل فاروق بلغةٍ سهلة مباشرة، وحبكاتٍ سريعة الإيقاع، وشخصياتٍ بطولية تحمل قيماً وطنية وأخلاقية واضحة، وقد استطاع من خلال هذا الأسلوب أن يجذب شرائح واسعة من القراء، خصوصاً في فئة الشباب واليافعين، حتى لُقّب بـ"عميد أدب الجاسوسية والخيال العلمي" في الوطن العربي، وظلّ اسمه حاضراً بقوة في المشهد الثقافي العربي حتى وفاته عام ٢٠٢٠، تاركاً وراءه تراثاً أدبياً ضخماً وأثراً تربوياً وثقافياً عميقاً في وعي أجيالٍ كاملة من القراء العرب.

ملخص الرواية

تنتمي هذه الرواية إلى سلسلة "رجل المستحيل" للكاتب نبيل فاروق، وتحمل عنوان "فاي: عملية البعث". تفتتح الرواية أحداثها في ليلة الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٣، عشية انطلاق معركة العبور المصرية لاسترداد سيناء؛ حيث يقفز شابٌ من رجال الصاعقة المصرية، مفعماً بالحماس والانتماء، في عملية إنزال جوي خلف خطوط العدو، لكن مظلته تفشل في الانفتاح، فيسقط من ارتفاعٍ شاهق نحو رمال سيناء، ويُصاب إصابة بالغة الخطورة تترك إياه في غيبوبة طويلة.يُحال الشاب إلى المستشفى العسكري، حيث يقرر الضابط المخابراتي "رفعت"، بعد جدلٍ مع زميله "نسيم"، أن يستثمر هذه الحادثة الاستثنائية؛ فيُدرَج اسم الشاب رسمياً ضمن قوائم شهداء حرب أكتوبر، ويُخفى وجوده الحقيقي عن الجميع تحت غطاء السرية، فلا يحمل في ملفه الطبي سوى رقمٍ مجرّد. وحين يستعيد الشاب وعيه بعد أشهرٍ طويلة من الغيبوبة، يتكشّف أنه فقد ذاكرته كاملةً؛ فلا يتذكر اسمه ولا ماضيه ولا هويته، وتصبح "اللحظة" التي استعاد فيها وعيه نقطة البداية الوحيدة لوجوده. يمنحه "رفعت" اسماً رمزياً هو "فاي"، الرمز الرياضي الذي يشير إلى "القيمة الخالية"، تعبيراً عن كونه إنساناً وُلد من العدم، بلا تاريخٍ سابق ولا انتماء معروف.يخضع "فاي" لتأهيلٍ جسدي ونفسي مكثّف، ثم يُجنَّد في صفوف المخابرات المصرية، ليصبح عميلاً من طرازٍ خاص يجمع بين البراعة القتالية والولاء المطلق لمصر، رغم أنه لا يحمل عنها سوى ذلك الانتماء الغريزي الذي ينبض في عروقه دون أن يستطيع تفسيره. وتتوالى مهماته السرية، وصولاً إلى عملية إنقاذ السفير المصري ورهائن آخرين من قبضة مجموعة إرهابية في نيويورك، حيث يُظهر "فاي" كفاءة استثنائية في المواجهة والتخطيط، وينجح في تحرير الرهائن والقضاء على الخاطفين، تاركاً وراءه رمزه الخاص "فاي" موسوماً على الجدار، إعلاناً ضمنياً عن هويته الجديدة التي لا اسم لها سوى هذا الرمز.تُغلق الرواية مشهدها الأخير بمشاعر متضاربة من الفخر والحزن، حين يُعاد "فاي" إلى مصر لمواصلة تدريبه ومهماته، تاركاً خلفه الرجل الذي صنعه من العدم، "رفعت"، يبكي بصمتٍ وهو يتابع الطائرة التي تحمل ابنه الرمزي عائدةً إلى الوطن الذي وُلد "فاي" من أجله ومن رحم فقدانه.

المبحث الأول: جدلية الفقد في بناء الشخصية الروائية

لا يكتفي السرد الروائي الحديث بتوظيف الحدث بوصفه واقعة عابرة تخدم الحبكة، بل يتعامل معه بوصفه بنية دلالية تُسهم في تشكيل وعي الشخصية ورؤيتها لذاتها؛ ويرى صلاح فضل أن «السرد في جوهره ليس سرداً للأحداث فحسب، بل هو بناء للوعي الذي يتشكل من خلال تتابع هذه الأحداث وتراكمها في وعي الشخصية ووعي القارئ معاً» (فضل، ١٩٩٢: ٨٨). وعلى هذا الأساس، يمكن قراءة لحظة الفقد في رواية "فاي: عملية البعث" بوصفها نقطة تأسيسية تُعيد صياغة معنى الشخصية الروائية من جذورها، لا حادثاً عارضاً يُحرّك الحبكة البوليسية فحسب.

أولاً: لحظة الإصابة والغيبوبة:

من الجسد المحارب إلى الجسد الغائب تُفتتح الرواية بمشهدٍ بطولي مكثّف يصوّر جسد البطل في أعلى درجات الفاعلية والانتماء، قبل أن ينقلب هذا الجسد المحارب فجأة إلى جسدٍ غائب فاقد للوعي. ويرى عبد الملك مرتاض أن الوصف الروائي «هو الأداة الفنية التي تحوّل المكان الواقعي إلى مكان تخييلي بامتياز، حيث يضفي الكاتب على التفاصيل المادية أبعاداً رمزية تجعل القارئ يعيش المكان لا أن يراه فقط» (مرتاض، ١٩٩٨: ١٤٥)، وهذه الملاحظة تنسحب على وصف لحظة السقوط، التي تتحول من حادثٍ فيزيائي إلى مشهدٍ رمزي يختزل مصير الشخصية كلها. فقبل السقوط، يبدو الجسد في قمة جهوزيته القتالية، كما يصفه السرد في لحظة الاستعداد للقفز:«كان جسده يهبط بسرعة مدهشة، مع عجلة الجاذبية الأرضية، والصحراء تتضح تدريجياً، مع اقترابه بهذه السرعة من الأرض، ورفاقه يبدون من حوله أشبه بطيور صغيرة» (فاروق، ٢٠٢٢: ١١).ثم ينقلب هذا الانسجام مع الحركة إلى عجزٍ مفاجئ حين تتعطل المظلة: «لقد جذب حبل مظلته، كما يفعل في كل مرة، ولكن.. المظلة لم تستجب.. لقد رفضت أن تنفتح، وتركت جسده يهوي نحو صحراء (سيناء)» (فاروق، ٢٠٢٢: ١٢). ويبلغ هذا الانقلاب ذروته في لحظة الارتطام الفعلي بالأرض: «وانفتحت المظلة هذه المرة.. ومع عنف الهواء، كادت تنتزع ساعده من جسده... وارتطم جسده بالرمال في عنف.. كانت الصدمة أكبر مما توقع، حتى أن كل عظمة في جسده صرخت ألماً» (فاروق، ٢٠٢٢: ١٣). ويؤكد فتحي شاكر أن الرواية الشعبية «تعتمد على لحظات التحول

الحاد في مصير الشخصية وسيلةً أساسية لشدّ القارئ، حيث يتحول البطل في ومضة واحدة من حالة إلى نقيضها تماماً» (شاكر، ٢٠٠٩: ٧١)، وهو ما يتجسد في ختام هذا المشهد بفقدان الوعي الكامل: «ولكن فجأة، أظلم كل شيء من حوله، و.. وفقد الوعي.. على رمال (سيناء)» (فاروق، ٢٠٢٢: ١٤)، فيغدو سقوط الجسد تمهيداً مادياً مباشراً لفقدان الذاكرة الذي سيليه.

ثانياً: محو الذاكرة بوصفه ولادة من العدم:

دلالة الاسم الرمزي "فاي" لا يقف فقدان الذاكرة عند حدود العطل الفيزيولوجي، بل يتحول في الرواية إلى بنية دلالية تُعيد تعريف الشخصية من الصفر؛ ويشير عبد الله إبراهيم إلى أن «السرد العربي الحديث قد انتقل من الاهتمام بالحدث إلى الاهتمام بالوعي، فأصبحت الشخصية مركز الثقل في البنية الروائية» (إبراهيم، ١٩٩٠: ١٤٣)، وهذا الانتقال من الحدث إلى الوعي يتجلى بوضوح في وصف لحظة استعادة الوعي ذاتها، التي تأتي خاويةً من أي معنى:«كل هذا ألن الشاب فتح عينيه، وتطلع إليهما بنظرة خاوية، وتحركت شفتاه في بطء، وكأنه يحاول نطق شيء ما، ولم يخرج منهما سوى همهمة خافتة غير مفهومة» (فاروق، ٢٠٢٢: ٣٨).وتتأكد هذه الخواء حين يُطرح السؤال الوجودي الأول والوحيد الذي يملكه البطل في تلك اللحظة: «ثم انفرجت شفتا الشاب.. انفرجتا في بطء، وهو يسأل بكلمات متعثرة: من....من أنا؟!» (فاروق، ٢٠٢٢: ٤٠). وتصف الممرضة هذا الفراغ المرجعي وصفاً دقيقاً حين تقول: «عقله صار صفحة بيضاء، لم يمسها الحبر، إال منذ استعاد وعيه..من هنا فقط تبدأ ذاكرته، أما كل ما سبق هذا، فقد تالشى تماماً» (فاروق، ٢٠٢٢: ٤١). وتُضيف رضوى السيد بُعداً نفسياً مهماً لفهم هذه اللحظة، حين تشير إلى أن «الشخصية الروائية التي تفقد ذاكرتها تدخل في أزمة وجودية مضاعفة، فهي لا تفقد ماضيها فحسب، بل تفقد معه الإطار المرجعي الذي يمكّنها من فهم حاضرها وتوقع مستقبلها» (السيد، ٢٠١٢: ٩٤)، وهذا ما يجعل اختيار الاسم الرمزي "فاي" أبلغ تعبير عن هذا الفراغ:«(فاي)..ذلك الرمز المعروف، في الرياضة الحديثة، والذي يشير إلى القيمة الخالية..مجرد قيمة خالية..إنها ال تساوي حتى صفراً؛ ألن الصفر قيمة محدودة في عالم الرياضيات» (فاروق، ٢٠٢٢: ٣١).فهذا الاسم لا يحمل تاريخاً ولا انتماءً عائلياً ولا جذراً لغوياً مألوفاً، بل يحمل معنى "العدم" نفسه، في مفارقة تجعل من غياب الهوية أساساً لهوية جديدة.

ثالثاً: الهوية الرسمية المزدوجة:

بين "الشهيد" في السجلات و"الحيّ" في الخفاء تتعمق جدلية الفقد حين تتحول الهوية إلى ازدواجية رسمية مقصودة، فالشخص ذاته يوجد في سجلَّين متناقضين: سجل الموت العلني، وسجل الحياة السرّي. ويرى محمد القاضي أن «الشكل والدلالة في الرواية يتداخلان بشكل وثيق، فاللغة ليست مجرد وسيلة لنقل الأحداث، بل هي أداة لبناء الدلالات وتشكيل رؤية الكاتب للعالم» (القاضي، ١٩٨٦: ١١٥)، وهذا التداخل بين الشكل الإجرائي والدلالة العميقة يتجسد في حوار الضابطين حول قرار محو الهوية:«لقد أوردت اسم الشاب، ضمن قائمة شهداء الحرب، وأغلقت بهذا سجله في عالم األلحياء، ثم إنك أخفيت اسمه عن األطباء والعاملين بالمستشفى العسكري، وكأنك تتعمد تحويله إلى شخص غامض..رجل خفي..فاي» (فاروق، ٢٠٢٢: ٢٩).وتتأكد هذه الازدواجية في وصف الملف الطبي الذي لا يحمل سوى رقم: «لو أنك انتبهت إلى الملف جيداً، لالحظت أنه ال يحمل أي اسم..فقد رقم (١٤٤).. وهذا الرقم ال يعني أي شيء على اإلطالق، بالنسبة لنظم المستشفى» (فاروق، ٢٠٢٢: ٣٦). ويتجلى الحضور السري لهذه الهوية المزدوجة في وصف الزائر الوحيد المسموح له بالدخول: «غير مسموح على اإلطالق بوجود أي زائرين، سوى شخص واحد، ممشوق القامة، صارم األلسلوب والمالمح، أشيب الفودين، يزوره بصفة منتظمة» (فاروق، ٢٠٢٢: ٣٦). ويرى حسن بحراوي أن «المكان المفتوح في السرد الروائي هو فضاء الحركة والمغامرة، وهو غالباً ما يرتبط بمفاهيم الرحيل، البحث عن الرزق، أو مواجهة المصير» (بحراوي، ١٩٩٠: ٣٢)، وعلى نقيض هذا الانفتاح، يبدو المستشفى فضاءً مغلقاً ومراقَباً بدقة تُعلن عن نفسها في تعليمات الاتصال الصارمة: «إننا لم نستخدمه قط، منذ أتوا به إلى هنا..ولكن األلوامر تحتم االتصال بالرقم فوراً، إذا استعاد ذلك المريض وعيه» (فاروق، ٢٠٢٢: ٣٧)، فيُعزَل البطل عمداً عن العالم الخارجي حتى يكتمل محو هويته الاجتماعية قبل أن تُصاغ هويته الجديدة من العدم.

المبحث الثاني: البعث الفردي والبعث الوطني: من الذاكرة المفقودة إلى الهوية المُعاد بناؤها

إذا كان المبحث الأول قد كشف عن آليات الفقد وتفكيك الهوية القديمة، فإن هذا المبحث يتعقّب المسار المعكوس: كيف يُعاد بناء هوية جديدة من ركام هذا الفقد، وكيف يتحول البعث الفردي إلى صورةٍ مصغّرة لبعثٍ وطني أشمل. ويشير سعيد يقطين إلى أن «الزمن والمكان في الخطاب الروائي ال ينفصالن، فالمكان يكتسب دالالته من خالل الزمن الذي يمر به، والزمن يتجسد في تحوالت المكان وتغيراته» (يقطين، ١٩٨٩: ٦٥)، وهذا التداخل بين الزمن الفردي والزمن التاريخي هو ما يؤسس لجدلية البعث المزدوج التي يقوم عليها هذا المبحث.

أولاً: الانتماء الغريزي بديلاً عن الذاكرة الشخصية:

بقاء الوطن حين يغيب كل شيء آخر يكشف النص عن مفارقة جوهرية: أن الذاكرة الشخصية بكل تفاصيلها قد تتلاشى تماماً، بينما يبقى الانتماء الوطني حياً في أعماق الشخصية، كما لو كان غريزة لا تخضع لآليات النسيان العادية. ويرى جابر عصفور أن «الهوية ليست معطىً جاهزاً بل هي بناء يتشكل عبر تراكم طبقات من الانتماء، بعضها وعيّ صريح وبعضها كامن في أعماق الذات لا يحتاج إلى تذكّر صريح ليبقى فاعلاً» (عصفور، ١٩٩٩: ٥٨)، وهذا ما يفسر ذلك التوهج الانتمائي الذي يسبق الإصابة بلحظات، حين يتساوى البطل مع رفاقه في الحماس الظاهر ويتفرّد عنهم بعمقه:«كانوا جميعاً في ذروة الحماس، ولكنه وحده كان يعتلي هذه الذروة..هذا ألنه لم يكن أبداً شخصاً عادياً» (فاروق، ٢٠٢٢: ٧). ويتجلى هذا الانتماء الذي يتجاوز قدرة اللغة على التعبير عنه في وصف صريح للسارد: «ال أحد يمكنه أن يشعر بما يعنيه له اسم (مصر).. (مصر) االم.. والوطن.. والحياة» (فاروق، ٢٠٢٢: ٦). ويُؤكد رفعت أمام مدير المخابرات هذه المفارقة بوضوح حاسم حين يقول: «لقد فقد الشاب ذكرياته وماضيه، ولكنه لن يفقد قوته وإرادته وعزمه، وذلك االنتماء الذي يتدفق في عروقه، ويجري فيها مجرى الدم» (فاروق، ٢٠٢٢: ٤٢). وتتجلى استمرارية هذا الانتماء حتى بعد محو الذاكرة في إصرار الشاب فاقد الهوية على نفي الاسم الكودي عن نفسه: «اسمى ليس (فاي) بالتأكيد.. إيقاع االسم نفسه ال يروق لي.. إنني مصري.. هذا ما أثق به تماماً، حتى ولو فقدت ذاكرتي كلها» (فاروق، ٢٠٢٢: ٤٥). وتُضيف فريدة بن مبارك بُعداً نظرياً مهماً لفهم هذا الثبات، حين تشير إلى أن «الهوية الجماعية، حين تتجذر في الذات بعمق كافٍ، تتحول إلى ما يشبه الذاكرة الجسدية التي تستمر حتى بعد انمحاء الذاكرة الواعية» (بن مبارك، ٢٠٠٥: ٥١)، وهو وصفٌ دقيق لحالة "فاي" الذي يحمل وطنه في عروقه لا في عقله.

ثانياً: إعادة التأهيل بوصفها مساراً لميلاد البطل الخارق:

من المريض رقم ١٤٤ إلى العميل "فاي" يرسم النص مساراً تصاعدياً دقيقاً لإعادة بناء الجسد والوعي معاً، بدءاً من حالة العجز الكامل وصولاً إلى استعادة القدرات الخارقة. ويرى حسن بحراوي أن الفضاءات المغلقة في السرد الروائي «تخلق نوعاً من التوتر الداخلي الذي يتفجر حين تنفتح الشخصية أخيراً على فضاء الحركة والمغامرة» (بحراوي، ١٩٩٠: ٤٠)، وهذا التوتر يتجلى في وصف مرحلة العلاج الأولى البطيئة:

«إنني أقوم برعايته في فترة عملي، وأحلق لحيته باستمراً، وأعاون طاقم العالج الطبيعي» (فاروق، ٢٠٢٢: ٣٥).

ثم يتسارع هذا التحول حين يؤكد الطبيب إمكانية الشفاء التدريجي: «سيتحسن هذا الشاب تدريجياً، ويستعيد قدراته البشرية خطوة فخطوة، مع مداومة العالج... صدقني..لن تمضَي ستة أشهر، حتى يستعيد قدرته على المشي والكالم» (فاروق، ٢٠٢٢: ٤٣). وتتجلى سرعة هذا التحول في شهادة الممرضة بعد ثلاثة أشهر فقط: «إنه صاحب إرادة فوالذية بحق..لقد حقق في ثالثة أشهر، ما يعجز عن تحقيقه مريض مشابه في عام كامل» (فاروق، ٢٠٢٢: ٤٧). ولا يلبث الجسد العاجز أن يستعيد كفاءته القتالية الكاملة في مشهد المواجهة الأخير، حين يقتحم غرفة الرهائن بمهارة محترفٍ مخضرم: «وعلى الرغم من أن الرجال االربعة هناك، كانوا محترفين بحق، إال أن ذلك االقتحام المدهش المفاجئ أصابهم بصدمة عنيفة، سمحت للشاب بالقفز أرضاً، والتدحرج في مهارة» (فاروق، ٢٠٢٢: ٩٣). ويُضيف عبد الله الركيبي بُعداً واقعياً مهماً لفهم هذا التحول، حين يرى أن «الواقعية في الرواية العربية ال تكتمل إال بتقديم تفاصيل دقيقة... تجعل القارئ يصدق العالم الروائي ويتفاعل معه كأنه جزء من واقعه المعيش» (الركيبي، ١٩٨٠: ٧٧)، وهذا ما يفسر إصرار الكاتب على تفصيل مراحل التأهيل بدقةٍ شبه طبية قبل أن يقفز بالبطل إلى مستوى البطولة الخارقة.

ثالثاً: التوازي الرمزي بين بعث الفرد وبعث الأمة:

حرب أكتوبر بوصفها أفقاً دلالياً للنص يبلغ هذا التوازي الرمزي ذروته حين تتقاطع لحظة الإصابة الفردية مع لحظة الانكسار الجماعي الذي عاشته مصر قبل أكتوبر ١٩٧٣، ولحظة البعث الفردي مع لحظة البعث الوطني الذي مثّلته المعركة. ويرى محمد بوعزة أن «تحليل النص السردي يكشف عن أن التقنيات اللغوية، مثل االستعارة والتشخيص، تسهم في تحويل المكان من مجرد فضاء مادي إلى فضاء نفسي ورمزي، يعكس حاالت الشخصيات وتطلعاتها» (بوعزة، ٢٠١٠: ٨٢)، وهذا التحويل الاستعاري يتجلى في وصف خط بارليف، الرمز المادي للهزيمة، الذي يصبح في مطلع الرواية مسرحاً للثأر:«غداً تبدأ معركة التحرير..تلك المعركة التي انتظرتموها طويالً، وتدربتم من أجلها كثيراً..المعركة التي ستسترد بها (مصر) عزتها وكرامتها بإذن اهلل، وترد الصاع صاعين لإلسرائيليين» (فاروق، ٢٠٢٢: ٥).ويتجلى هذا التوازي بين النصر الفردي والنصر الوطني في وصف خط بارليف نفسه الذي حطّمه الجيش المصري في ساعاتٍ معدودة، فالخط الذي قيل عنه إنه «قادرة على الصمود أمام قنبلة ذرية» (فاروق، ٢٠٢٢: ٤) يسقط تماماً كما سيسقط جسد البطل ويُبعث من جديد. ويختم البطل، في ذروة بعثه الفردي الأخير، رحلته بعبارة تُلخّص هذا التوازي بين البعثين: «مع تحيات (مصر)، والمخابرات المصرية يا سيادة السفير» (فاروق، ٢٠٢٢: ٩٧). وتتجلى لحظة الذوبان الكاملة بين الفرد والوطن في وصف رد الشاب حين يُسأل عن انتمائه قبل الانطلاق في مهمته الأخيرة: «(مصر) يا (فاي)..(مصر) تنتظر خدماتك.. فانتفضت عروق

الشاب، وهو يقول: رقبتي فداء لها» (فاروق، ٢٠٢٢: ٩٩). ويرى حسين دعسة، في معرض حديثه عن العلاقة بين الفرد والجماعة في النص الأدبي، أن «الرمز الفردي حين يرتبط برمزٍ وطني جامع يفقد خصوصيته الفردية المحدودة ليكتسب طاقة دلالية جماعية تتجاوز حدود الشخصية الواحدة إلى حدود الأمة كلها» (دعسة، ٢٠١٨: ٧٧)، وهذا بالضبط ما يحدث لـ"فاي"؛ فبعثه الشخصي من العدم لا يكتمل معناه إلا حين يُقرأ في ضوء بعث مصر نفسها من هزيمتها، فيتطابق مصير الفرد بمصير الوطن في معادلة رمزية واحدة لا تنفصل أطرافها.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم، عبد الله. (١٩٩٠). المتخيل السردي: مقاربات نقدية في الرواية العربية. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

٢. بحراوي، حسن. (١٩٩٠). بنية الشكل الروائي: الفضاء، الزمن، الشخصية. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

٣. توفيق، أحمد. (٢٠١٥). أدب الجاسوسية في الرواية العربية: النشأة والتطور. دار العين للنشر، القاهرة.

٤. الجابري، محمد عابد. (١٩٩١). الذاكرة والهوية: قراءة في أزمة الوعي العربي المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٥. حنفي، حسن. (١٩٨٠). من الهوية إلى الانتماء: قراءة في فلسفة الذات. دار التنوير، بيروت.

٦. الزيناتي، عيدي. (٢٠١٧). جماليات المكان والهوية في الرواية العربية: قراءة سيميائية. عالم الكتب الحديث، عمّان.

٧. السيد، رضوى. (٢٠١٢). سيكولوجية الشخصية الروائية: دراسة في الأدب العربي الحديث. دار الشروق، القاهرة.

٨. شاكر، فتحي. (٢٠٠٩). الرواية الشعبية العربية: الخصائص والوظائف. دار غريب للنشر، القاهرة.

٩. عصفور، جابر. (١٩٩٩). هويات متعددة: قراءات في الأدب والثقافة. دار الهلال، القاهرة.

١٠. فضل، صلاح. (١٩٩٢). علم السرد: نظرياته ومناهجه. دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة.

١١. القاضي، محمد. (١٩٨٦). الشكل والدلالة في الرواية العربية. دار سيناترا للنشر، تونس.

١٢. مرتاض، عبد الملك. (١٩٩٨). في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد. عالم المعرفة، الكويت.

١٣. النابلسي، شاكر. (٢٠٠٣). جماليات المكان في الرواية العربية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

١٤. يقطين، سعيد. (١٩٨٩). تحليل الخطاب الروائي: الزمن، السرد، التبئير. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.